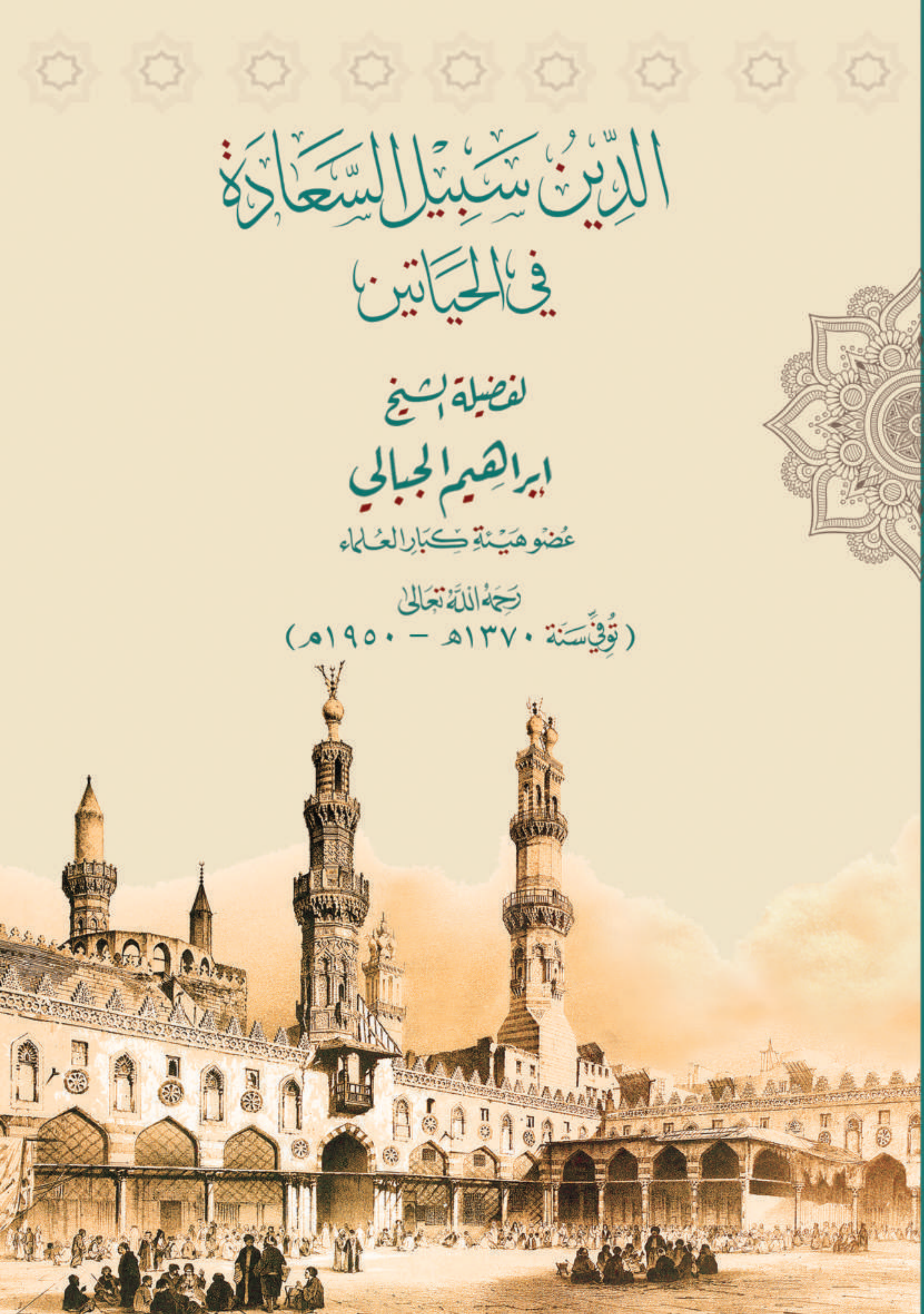


الدين سبيل السعادة في الحياتين

لفضيلة الشيخ

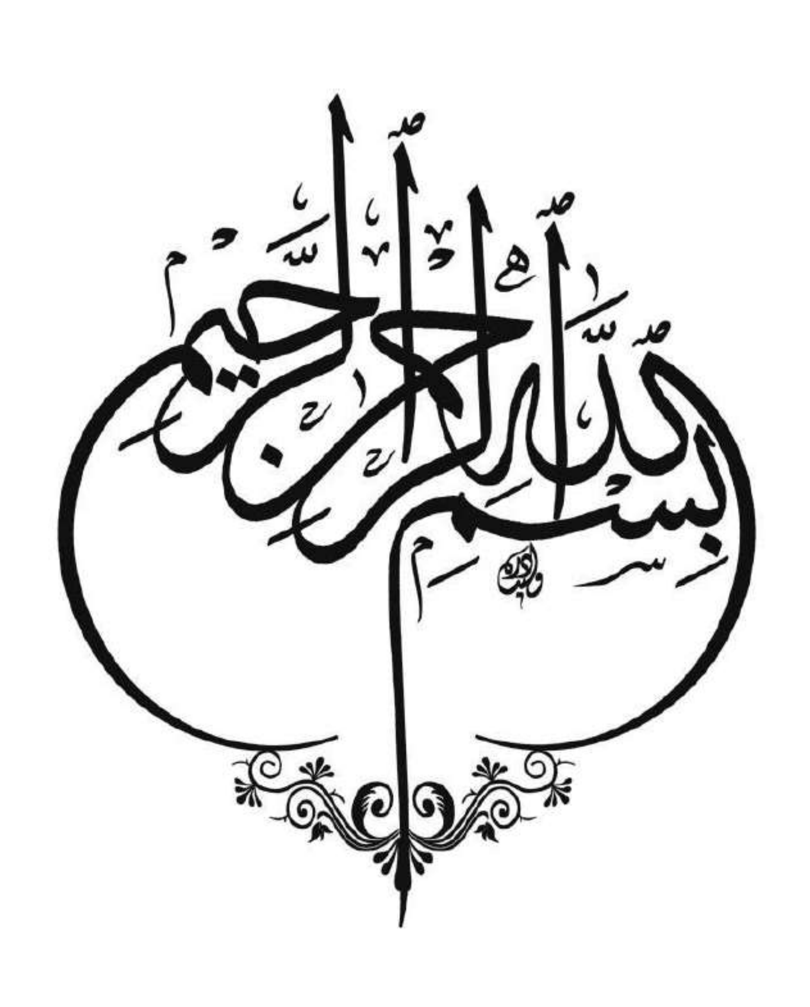
ابراهيم الجبالي

عضو هيئة كبار العلماء

رحمه الله تعالى

(توفي سنة ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م)

الدينُ سبيلُ السّعَادَة
فِي الحَيَاتَينِ


بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر الشريف
هيئة كبار العلماء

الدين سبيل السعادة في الحياتين

لفضيلة الشيخ

إبراهيم الجبالي

عضو هيئة كبار العلماء

رحمه الله تعالى

(توفي سنة ١٣٧٠هـ -١٩٥٠م)

الأزهر الشريف

هيئة كبار العلماء

تليفون: ٠٢٢٥٩٣٩٠٤٦

فاكس: ٠٢٢٥٩٣٩٠٤٦

البريد الإلكتروني:

SeniorsCouncil@alazhar.eg

الموقع الإلكتروني:

www.azhar.eg/scholars

العنوان:

ش الأزهر – أمام مسجد سيدنا

الإمام الحسين – القاهرة

*****

فهرست الهيئة المصرية العامة لدار الكتب

والوثائق القومية:

الدين سبيل السعادة في الحياتين

لفضيلة الشيخ إبراهيم الجبالي

ص: ١٤ × ٢٠ سم

عدد الصفحات: ٨٦

الطبعة الأولى

لهيئة كبار العلماء

١٤٤٢هـ -٢٠٢١م

متعهد الطبع:

مجمع مطابع الأزهر الشريف

تليفون: ٢٦٨٤٠٥٥٧

فاكس: ٢٦٨٤٠٥٥٧

****

مراجعة علمية :

د/ أحمد حسن عبد العظيم

مراجعه لغوية:

عاصم غريب

الإعداد الطباعي:

أمين أحمد زكريا

إيهاب مجدي عامر

تصميم الغلاف:

محمد سيد عبد الفتاح

رقم الإيداع: ٢٠٢١/١٩٨٦

الترقيم الدولي: ٠ - ٤٢٢-٢٠٥-٩٧٧-٩٧٨

افتتاحية

الحمد لله رب العالمين، الهادي إلى سواء السَّبيل، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيِّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى التَّابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين... وبعد

فإنَّ من فضل الله تعالى على هذه الأمَّة أن جعلها أمَّة وسطًا، تمدُّ يد الإعمار القلبيِّ والعقليِّ، والحضاريِّ والإنسانيِّ للدُّنيا كلِّها، عن عقيدةٍ راسخةٍ أنَّها خير أمَّة أُخرِجت للنَّاس تأمر بالمعروف في كلِّ مجالات الحياة، وتنهى عن المنكر في كلِّ مجالاتها كذلك.

وقد قيَّض الله لهذه الأمَّة من يحمل منهجها، ويسعى به في النَّاس، فكان الأزهر الشَّريف حامل لواء الخير، ومترجم



الوسطيَّة، ومشعل الهداية الباقي على مرِّ القرون والأزمان، ولسان الشَّريعة النَّاطق بالحقِّ والبرهان.

وإسهامات الأزهر الشَّريف المعمور لا تنكر في مجال التَّواصل مع الآخر، وإعلاء قيم المواطنة والإنسانيَّة؛ ليظلَّ هذا العطاء شاهدًا لهذا الصَّرح الشَّامخ بما ترسَّخ لديه عبر القرون من تعمُّق في فهم الإسلام عقيدة وشريعة، واعتماد صحيح الدِّين منهجًا يتربَّى عليه أبناؤه ومريدوه، ويترجم ذلك علماؤه ومنتسبوه.

ويتوالى عطاء الأزهر الشَّريف من خلال هيئة كبار العلماء والَّتي تضطلع بعبْء الرِّيادة العلميَّة وحسم النِّزاع في شتَّى قضايا الأمَّة من خلال رصد الواقع وتوجيهه ومعالجته بما يتَّفق وصحيح الدِّين.

وانطلاقًا من تلك المهمَّة المحمودة عملت الهيئة على إخراج بعض المؤلَّفات العلميَّة للسَّادة علماء الأزهر الأجلَّاء، والَّتي تتناول أهمَّ القضايا العلميَّة وتعالجها معالجة متعمِّقة، تعبِّر عن منهج الأزهر الوسطيِّ.

على أنَّ هذه الإصدارات إنَّما تمثِّل ثمار عملٍ علميٍّ ناضجٍ، وجهدٍ فكريٍّ دقيقٍ، يهيِّئ للقارئ الكريم فرصة طيِّبة لمزيد من المعرفة الصَّحيحة، كما تيسِّر له السُّبل لفهمٍ أعمق، وثقافةٍ أرحب على طريق الوعي الفقهيِّ والشَّرعيِّ المستنير.

نسأل الله العليَّ العظيم أن يوفِّق علماءنا للعمل لما فيه خير ديننا ونصرة إسلامنا، وأن يحفظ الأزهر وشيخه وعلماءه، وأن يجزيَهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

الأمانة العامَّة

لهيئة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

[عجز المخلوق أمام قدرة الخالق]

ما أعجبَ شأنَك أيها الإنسان، أيها الضَّعيف الجبَّار، أيها العاتي العاجز، أيها الخطير الحقير، أيها الصغير الكبير! إن من تأمَّل في هذا المخلوق (النوع الإنساني) رأى العجب العُجاب، رأى أشدَّ المخلوقات احتياجًا وأكثرها مطالب، وأعجزَها عن أن يستوفي لوازمه بمفرده، وأجزَعها إذا فاته شيء مما يطلب، وأحرصَها على التمسك بما نالته يده، ولو لم تَدْعُ إليه حاجته الحاضرة؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج:١٩–٢٢].

تنظر إلى أنواع المخلوقات فتجدها كلها ذات حاجات محدودة، يكفل كل فرد منها مصالح نفسه بنفسه، وإذا احتاج إلى الانضمام إلى غيره من جنسه فإلى حدٍّ محدود بمقدار ما

يتعاون على دفع عدوٍّ، كبعض أنواع القِردة، أو بمقدار ما ينظِّم إنتاجه الذي هُيِّئ له بحسب خِلقته كالنَّحل، أو ما يُشاكل هذين الغرضين من المصالح التي ليست بضرورية لحياة الفرد أو النوع.

أما هذا المخلوق فأضعف المخلوقات عن أن يستغني في وجوده عن غيره، فهو أشد الاحتياج، بل الاضطرار إلى أن يستخدم في مصالحه واستكمال حياته من القُوى ما لا يدخل تحت حصر، وكلَّما استكمل حاجة من حاجاته بَدَت له حاجةٌ أخرى أشدُّ منها، وهكذا:

نروحُ ونغدو لحاجتِنا وحاجاتُ مَن عاش لا تنقضي

نروحُ ونغدو لحاجتِنا وتبقَى له حاجــــةٌ ما بَقــي[1]

---

(١) البيتان من شعر الصَّلَتان العبدي (ت: ٨٠ هـ) لكن البيت الثاني يُروى هكذا:

تموتُ مع المَرْء حاجاتُه وتبقى له حاجةٌ ما بَقِي

وإن الحاجة الواحدة لتستدعي من القُوى المتعاونة ما لا يُعرف عدده إلا بالتأمل وطول التفكير، وانظر إلى ثوبه الذي يلبسه، ولا بدَّ له منه ليقي نفسه عوادي الجو التي لا قِبَل له بها، وهو وحده من بين المخلوقات الشديد الضعف عن تحمل حوادث الجو، انظر إلى ثوبه وافرِضْه ثوبًا بسيطًا من قطن مثلًا، وادْرُس تاريخ حياة هذا الثوب من يوم حرث الأرض، ولا تنْسَ المِحراث وما رُكِّب فيه من حديد وخشب وحبال ومَواشٍ، وما يتطلَّبه كلُّ واحد من هذه الأشياء من معدنيِّين يستخرجون المعدن من مَنْجَمه، وصُنَّاعٍ يصنعونه ويَصْقُلونه ويَصوغونه، ومثله الأجزاء الأخرى.

ينظر: «الشعر والشعراء» لابن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ): (١/ ٤٩٣)، «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» للبغدادي (ت: ١٠٩٣هـ): (٢/ ١٨٢).

ثم انظر إلى وضع البذور وما يستتبعه من عملية زراعية سابقة، وانظر إلى السَّقي وما يُطلب من آلات متنوِّعة، وكم من الأيدي اشتغلت فيها، فإذا تمَّ نباتُه وبَدَا صلاحُه فما هي أعمال جَمْعه وإعداده للنسيج؟ وكم بين يد الزَّارع ويدِ النَّاسج من وسيط صناعي وتجاري، ثم ما هي أعمال النسيج وماذا تستتبع، وما طريق ردِّه من يد الناسج إلى يد المشتري المستهلك، وكيف يرُدُّه إلى خائطه، وما هي أدوات الخياطة وما نحتاج إليه؟

هذه سلسلة لا تحتاج إلى أن نشرحها لك، وإنما نذكر شيئًا منها، ندعوك به إلى التأمل في كل حلقة من تلك السلسلة الطويلة؛ كيف تجرُّ وراءها سلسلة أطول، وتستخدم أيديَ عاملة أكثر، وما من يدٍ عاملة إلا وهي محتاجة إلى أيدٍ كثيرة

جدًّا تخدمها؛ لتوفِّر لها قوَّتها التي تستعين بها على خدمتها لك.

فهل فكَّرت يومًا في هذا الجيش الجرَّار الذي يخدمك في ثوبك القطن البسيط، وأنك بدونه لا تستطيع أن تعيش؟! وهل فكَّرت يومًا في ضعفك المتناهي، وأنك في حاجة شديدة في أبسط أمورك إلى خَدَم يُقيمون أَوَدَك، ويؤدُّون إليك منافع أنت إليها جِدُّ مضطرٍّ؟ وهل أنت في شكٍّ مما قدَّمناه إليك من أن هذا الإنسان أشدُّ المخلوقات حرصًا على ما نالته يده، مما عساه يحتاج إليه ولو على احتمال ضعيف، فهو كَنوزٌ شحيحٌ لا تسمح نفسه بالتجاوز عما أحرَزَت يدُه، بل ولو لم يحتَجْ إليه.

هل هو كالسِّباع التي متى شبِعَت تركت فَضْل فريستها؟ وهل هو كالدَّجاج الذي متى اكتفى ترك الحبَّ ومضى؟ وهل

هو كالبهائم التي ترعى حتى تشبع، ثم تُعرِض عما تأكل حتى تجوع فتعود على قَدْر حاجتها؟

كلَّا، ما هو من ذلك في شيء، فهو إذا مسَّه الخير مَنوعٌ، فلا تَطيب نفس امرئ عن شيء يناله إلا في مقابلة شيء يُعادله، وعلى ذلك تجد نفسك مضطرًّا -لكي تنال خدمة هذا الجيش الجرَّار- أن تَخدُم خدمة تُعادل ما نِلْته منه، وهنا أَلْفِتُك إلى كلمة (تُعادل ما نِلْته منه)، فمن ذا الذي يَحكُم لك أو عليك بأن هذا عِدْلُ[1] ذاك، فلم تَظلِم ولم تُظلم؟!

إن هذا أيضًا من أبواب الاحتياج يجرُّ وراءه سلسلة من أطول السلاسل، هي سلسلة الحكم والقضاء والتنفيذ، وما إلى ذلك من قوة مُهيمِنة على جميعها، ثم جيش يسندها.

---

(١) العِدْل، بالكسر: المِثْل والنظير، وبالفتح: مِثْله من غير جنسه، انظر: «المصباح المنير» (ع د ل).

أرأيت هذا الضعف؟! وأيُّ ضعف أشد من أن ترى نفسك محتاجًا في معيشــتك البســيطة إلى أن يخدُمك جيش وأن تخدم جيشًا.



[البحث عن الترف]

وكلما ارتَقَت حياة المرء في الحضارة وانغمس في النعيم كثُرَت حاجاته واشتدَّ إليها احتياجه، والنَّعيم نَشْدتُه دائمًا، فهو في كل حال يَنشُد الضعف وأسبابه، ويجرُّه إلى نفسه جرًّا، فالنعيم والتَّرَف محبوبان، وهما من أقوى عوامل الضعف.

فما أشبهَ حال الإنسان في ذلك بقول الشاعر:

أُحِبُّه وهَلاكي في مَحبَّتهِ   كعابِدِ النَّار يهواها وتَحْرِقُه [١]

ولا تنْسَ أن المُترَفين أضعفُ منه وأوهى احتمالًا، وأشدُّ جَزَعًا لفقده حاجةً من حاجاتهم، بل لنقص لذَّةٍ كمالية مما تعودوه بالرَّفْه، وأصبح قرين حياتهم ولا غِنًى لهم عنه.

---

(١) القائل هو المظفَّر بن عمر الآمدي؛ إذ يقول:

قولي لمن قد جَفَوني إذ لهجتُ بهم   دون الأنام وخيرُ القول أصدقُه

أحبُّكم وهلاكي في محبَّتكم   كعابد النار يهواها وتحرقُه

ينظر: «المستطرف في كل فن مستطرف»: (ص: ٤٣٣).

فكُلَّما ارتفعت حياة المرء اشــتدَّ ضــعفُه، وناهيك بذلك ضعفًا، وما أحسن تعبير ابن خلدون في وصف بعـض الأمم بقوله: «وقد أصابهم داء التَّرَف فأفناهم»(١).

ويقول بعض الناس: «الرَّفه مرض اختياري تجلبه النعمة ويأخذه من يشاء».

هذه ناحية من نواحي ضــعفه نبَّهناك إليها، وهي مما يدل قليلُه على كثيره، لمن تأمَّل وتنقَّل بنظره في شــئون الإنســان المتكثِّرة.

---

(١) جاء هذا المعنى عند ابن خلدون مطوَّلًا، حيث يقول: «... وأيضًا فالتَّرَف مُفسِد للخلق بما يحصل في النَّفس من ألوان الشَّرِّ والسَّفسفة وعوائدها -كما يأتي في فصل الحضارة- فتذهب منهم خِلالُ الخير التي كانت علامةً على الملك ودليلًا عليه، ويتَّصفون بما يُناقِضها من خلال الشَّر، فيكون علامة على الإدبار والانقراض، بما جعل الله من ذلك في خليقته، وتأخذ الدَّولة مبادئ العَطَب، وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يُقضى عليها». «تاريخ ابن خلدون»: (١/ ٢١٢).

وأما من ناحية جبروته وقوَّته وعنفه فهي أظهر من أن تخفى، فقد مكَّن الله له في الأرض؛ ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وهداه إلى كيفية الانتفاع بها وبقواها المبثوثة فيها، وسخَّر له كل شيء، وأطلق يده في كل عمل غير معطَّل الأسباب ولا محروم النتائج، وبَثَّ له من القُوى في هذا العالم ما تمكَّنَ به من التحليل والتركيب في كبيرات الأمور وصغيراتها، والاستثمار والاستعمار في فِجاج الأرض ومسالكها، وأدنى له القطوفَ وركَّب فيه الحاجة التي تدفعه إلى الكَدِّ والكَدْح وابتكار الوسائل، وشجَّعه نجاحُه في الوصول إلى ما يبتغي، متى أحكم الوسائل، مما لم يكن يخطر له على بالٍ، وهنا تفَتَّقت له الصناعات وانقادت له القُوى، وصحَّ أن يُحرز هذا اللقب الجليل المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ولقد أخذ في هذه العوامل يقود بعضها بعضًا ويساعد أحدها الآخر؛ فكلما عالج غايةً وصل إليها، متى ثَبَت وأتقن أسبابه وانتفع بهذا الملك الواسع الذي منحه الله له في قوله جلَّ من قائلٍ: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩].

لقد بحث عما خلق الله له بدافع حاجاته المتتالية المتزايدة التي لا تقف عند حدٍّ، فاهتدى إليه وإلى استخدامه والانتفاع به بمقتضى ما وهبه الله من قوة العقل والفهم، ثم نسي احتياجه وذكر نجاحه فاعتزَّ واغترَّ، وطغى وتجبَّر، حتى حدَّثته نفسه أن يُشارك ربَّه في جبروته وكبريائه: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ⁦٦⁩ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧]، ولكن سرعان ما تفجَؤه فاجئة لم تكن له في حساب، وما أكثر نواحي ضعفه، فيخِرُّ من سماء كبريائه جَزوعًا هلوعًا، ويَضعُف ذلك الجبَّار حتى يرى نفسه غير جدير بالحياة التي وهبها له ربُّه، فقد يحاول التخلص منها

وهي أعز شيء، وكأنه يردِّد في خَطرات نفسه قول ذلك القائل الجبَّار:

وإنَّا أُناسٌ لا توسُّطَ بيننا لنا الصَّدْرُ دونَ العالمينَ أو القبرُ [١]

على رِسْــلك أيها القارئ الكريم، ولا تتعجَّل في النقد، فكأني أســمع منك هذه الكلمة: لقد نســـــي الكاتب رأس موضوعه (الدين سبيل السعادة في الحياتين)، وخاض بنا في حديث غيره... لا لا، ما نسيتُه، وإنما مهَّدت لك بهذه المقدمة لتُحسِــن الاســتماع لما ســيُتلى عليك، ولتعلم أن منزلة الدين من فروع الحياة منزلة النَّفَس، الذي لا يُستغنى عنه لحظة، فهو أكثر من منزلة الغذاء والشراب وكل شأن آخر.

---

(١) القائل هو أبو فراس الحمداني، والبيت كما هو في ديوانه:

ونحن أناسٌ لا توسُّطَ عندنا لنا الصَّدْرُ دون العالمين أو القبرُ

ينظر: «ديوان أبي فراس الحمداني»: (٢/ ٢١٤).

[الإنسان بين عوامل القوة والضعف]

لقد تبيَّنت أن الإنسان محفوف بعاملين عظيمين شديدي الأثر في مجرى حياته: عامل الضعف، وعامل القوة، وأنهما يفعلان به فعلهما ويَفتِكان بسعادته وهَناءته، وأنه فريسة لهما لا يستطيع التخلص منهما، فاعلم أن أعظم ما يُنقذه من فَتْكهما ولعبهما هو تديُّنه وشعوره بأن له إلهًا مُهيمِنًا عليه وعلى كل شيء في هذا العالم، وأن بيده ملكوت كل شيء، وإليه المرجِع في كل شيء.

هذا الشعور والاعتقاد متى حلَّ في النَّفس وتمكَّن منها غالَبَت به ما يعتريها من الوَهَن والتضَعْضُع من متاعب الحياة ومصاعبها، فإذا غلبتها تكاليف الحياة وناءت بثقلها تذكَّرت أن لها ربًّا، ربًّا أغدق عليها نِعَمه وغَمَرها في بحر إحسانه وكرمه، ووهبها نعمة الوجود والقوة والعقل، وتسخير كل

شيء، وتسهيل سبل الحياة، وهَبَها كلَّ هذا ولم تدفع له ثمنًا، ولا تصوَّرته قبل أن يُوهب لها، فجدير بواهِب النعمة كَرمًا أن يُديمها ويجدِّدها كرمًا، وهنا يحِقُّ له أن ينشد قول القائل(١):

لا تيئسَنَّ ولا تَخَفْ ... ودَعِ التفكر والأسَفْ

اللهُ عوَّدَك الجميل ... فقِسْ على ما قد سَلَفْ

فتقوَى نفسُه على تحمل أكدار الحياة، ويتَّسِع صدره لمصاعبها، ويزول عنه التَّضعْضُع المهلِك، والخنوع المزْري، فيستجِمُّ نشاطًا جديدًا، ويَستجمِع قوًى فتية، فيُقبِل على شأنه

---

(١) وهو صفيُّ الدِّين الحَلَبي كما في «الكشكول» لمحمد بهاء الدين العاملي (١/ ٢٠٨)، دون ذكر للبيت الأول، وقد سُبق البيت الثاني بخمسة أبيات، مطلعها:

كُنْ عن همومِك مُعرِضا ... وكِلِ الأمورَ إلى القَضا

وقد ورد البيتان في «الجواهر الثمينة في محاسن المدينة» (ص٣٤): ومطلعها: لا تحزننَّ. . .

مستعينًا بربِّه واثقًا بمعونته، وكيف به إذا هو أقبل على عبادة ربه واتَّجه إلى مناجاته بلسانه وقلبه، وبدأ عبادته بهذه الكلمة التي تبعث فيه أعظم قوة؛ إذ يقول: الله أكبر، ثم يُردفها بقراءة أم الكتاب وفيها الثناء على الله بما هو أهلُه، واستحضار رب العالمين يُربِّيهم ويبلِّغهم كمالاتهم التي أرادها لهم، ثم ذكر رحمته المتكرِّرة، وقوة ملكه في دار الآخرة؛ ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤]

ثم أخلص نفسه لعبادته وحده، وجعل معونته به وحده، وأي معونة تلك التي تُستمَدُّ من أعظم قوة، بل من مصدر القُوى والقُدَر، بل من واهِب الوجود وما حوى؟

هٰهنا تسمو النفس من حضيض ذِلَّتها، وتسترجع العظمة بواسطة عبوديَّتها، وتحتقر كلَّ ما يصادفها مما تكره في سبيل أنها أحرزت أعظم غاية تُقصد من حياتها هذه الفانية.

فليتَ الذي بيني وبينَك عامِرٌ وبيني وبين العالمينَ خرابُ

إذا صــحَّ منـك الوُدُّ فـالكـلُّ هيِّنٌ وكلُّ الذي فوق التُّرابِ تُرابُ[1]

نعم ويشعر بأن هذه الدار دار فناء وممرٍّ، وأن الدار الآخرة دار بقاء ومقرٍّ، فلا ينبغي أن تَذهَب نفسُه حسراتٍ على حياة، إنما هي لحظات قصيرة تنقضي سِراعًا، ويقول كما قال فقير لعظيم:

إن الفرق بيني وبينك لحظة وتنقضي؛ فما مضى فنيَ مني ومنك، وما بقي فغيبٌ ومُنعدِم عني وعنك، وليس إلا اللحظة الحاضرة، فما شأنها في حياة الخلود في الدار الآخرة؟ أليس

---

(١) البيتان لأبي فراس الحمداني، من قصيدة قالها -وهو في الأَسْر- لسيف الدولة، لكنهما رُويا في ديوانه هكذا:

وليتَ الـذي بيني وبينـك عـامرٌ وبيـني وبيـن العـالمـين خـرابُ
إذا نلـت منك الودُّ فـالكـل هيِّنٌ وكـلُّ الـذي فـوق الـتـراب تـرابُ

وقبلهما البيت المشهور:

فليتـك تحلو والحيـاةُ مريرةٌ وليتك ترضى والأنامُ غِضابُ

ومما هو معروف أن بعض العارفين ينشدون هذه الأبيات، لكن المخاطَب فيها هو الملك الحق جل جلاله. ينظر: «ديوان أبي فراس الحمداني»: (ص: ٤٨)، نور الدين اليوسي «زهر الأكم في الآداب والحكم»: (١/ ٢٣٤).

هذا الشعور مما يقوِّي عزائم النفوس ويشُدُّ أَزْرَهَا في تحمل أعباء هذه الحياة؟! فكيف إذا اجتمع إليه الاعتقاد بأنه إذا قابل مصائبها بالاطمئنان وقضاء ربه بالرضا - نال بذلك الجزاء الأوفر الأوفى، وفاز عند ربه بالحسنى ودخل في قوله جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٧ – ٣٠].

أليس يعتبر ما هو فيه من نكد الحياة فرصةَ سعادةٍ يغتنم بها رضا ربه والفوز بدخول جنته؟! أليس يقول مع القائلين: إن مصيبة تعطف المرء إلى ربه وتوجِب عطف ربه عليه خيرٌ من نعمة تَصرِفه عنه وتكون وسيلةً لنقمته؟

إن الشعور بهذه النعمة من أعظم ما يهوِّن على المرء شقاء الحياة (والحياة كلها شقاء)، ويبدلها سعادة وغبطة، وحقًّا مَن سلب من المرء إيمانه فقد سلبه سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة.

[الدين وأثره في انقاذ النفس البشرية من الضعف]

هذا شأن الدين في إنقاذ النفوس من فَتْك عوامل الضعف بها، وأما شأنه في معالجة ما يَبطِش بها من عوامل الشعور بالقوة فهو أعظم وأكبر أثرًا؛ ذلك أن النفس إذا اغترَّت بقوَّتها واغترَّت بالنِّعم التي أحرزتها فنسيت نفسها وتجاهلت منزلتها؛ ملكها الطغيان، وتمكَّن منها الشيطان، فبَطِرت معيشتها وعَتَت عتوًّا كبيرًا، وإنك لتجد في طبيعة النفوس من التطلع إلى مقام الكبرياء، وأنه يملك عليها مشاعرها ما إذا تأملته أشفقت عليها من نتائجه الوخيمة، وما ظنُّك بنزغة من نزغات الشيطان تطوِّح بتلك النفس الضعيفة إلى منازَعة الله العلي الأعلى في كبريائه؟

التفِتْ -وحقِّك- إلى ما يكون من المخدوم مع خادمه حين يعارضه في رأي، أو يشير عليه بصواب، أو يدافع عن نفسه بالحق، كيف يكبر منه هذا ويستاء له ويؤنِّبه على تكلُّمه

أمامه وإنْ بحق؟! رُوِيَ أن عظيمًا قال لشخص: كيف تجادلني وترُدُّ على كلامي؟ فقال: يا سيدي إن الله تعالى يقول: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

ألا ترى هذا العظيم يعطي نفسه حقًّا لم يَرْضَه الله لنفسه، وهو أنه لم يسمح لمن أمامه أن يجادل عن نفسه؟!

ثم ارجع بنظرك إلى ما يجري بين الناس إلى وقتنا هذا، ولا تغضب إذا قلت لك: لعلك تكون من هذا القبيل في بعض الأحيان، وإلا فلماذا تجد نفسك تتحرك بالغضب إذا ما خاطبك خادمك أو مرءوسك يدافع عن نفسه بالأدب والحق، ولا تتحرك إذا أغلظ لك القول من تعتقد فيه العظمة بالباطل؟ اصدقني وأنصف من نفسك، واعلم أن الشعور بالقوة أخطر أثرًا على النفس وأشدُّ إهلاكًا لها، وأحوج إلى المعالجة لإنقاذها من براثنها من الشعور بالضعف، لا بل هما قوتان

متكاتفتان على النفس تفتكان بها لولا ما وهبه الله من الدين الذي بعث به خير المرسلين، وقال له: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فاعلم أن الشعور بأنك عبد الله أمرك أن تشكر نعمته عليك، وتقدِّر نفسك قدْرَها، ولا تعطيها ما ليس من حقها، هو من نِعَم الله عليك التي تحفظ غيرها من النِّعم وتزيدها.

هذا، وإن الاسترسال في الاعتداد بالقوة من شأنه أن يَصرِف القلوب بعضها عن بعض، ويوقع بينها النفرة والبغضاء، فتسوء حياة صاحبه ويشعر بالمقت يتبادل بينه وبين الناس، ولا أتعس من حياة الكاره المكروه من خلطائه أجمعين.

ويعجبني قول الغزالي في التنفير من الكبر والترغيب في التواضع: «إنك لو رأيت عالِمًا جوادًا متكبِّرًا لأبغضتَه؛ لكبريائه، ونفَرَت نفسُك من علمه وجُوده، ولو رأيت جاهلًا

بخيلًا متواضعًا لوجدت من نفسك الميل إليه؛ لتواضعه، فناهيك برذيلة أَوْدت بفضيلتين وفضيلة سترت رذيلتين»(١).

أضف إلى ذلك أن الدين يعدل مزاج القوة ويوجِّهها إلى خير طريق يوصل إلى أشرف غاية، تأمَّل في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧] تجد أن الله – تعالى- يرشدنا إلى أن ما خوَّلَناه من نعمته بِذرٌ مخصّب لمن أحسن زرْعه، وأنه صالح لأن يُدِرَّ عليه أعظم الخيرات، وينتج

---

(١) مما يقرِّب من هذا المعنى ما رواه جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبِّكم إليَّ وأقربَكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسِنُكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدَكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدِّقون والمتفيهقون»، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدِّقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون». أخرجه الترمذي في «سننه»: (٣/٤٣٨) (أبواب البر والصلة-باب ما جاء في معالي الأخلاق)، حديث رقم: (٢١٠٨).

له أطيب الثمار متى زرعه في مكانه الصالح له، ذلك بأن يبتغي فيه الدار الآخرة فيقوم بحق ربه فيه، فتكون نعمة جَرَّت نعمًا وغنيمة استتبعت غنائم، وتكون كقولهم: «الخير يَجلِب الخير»[1]، أو كقول العامة: لا يجلب المال إلا المال، فهي نعمة امتحنك بها؛ فإن شئتَ جعلتها متجرًا رابحًا لنعم وفيرة، وإن شئت لهوْتَ بها فضيَّعت على نفسك الخير العاجل والآجل، فيكون الشخص حينئذٍ ممن خَسِر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

ثم أردف ذلك بقوله: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٧٧]، ونصيبه منها إمَّا الاستمتاع بما خُوِل من نعمة، فكأنه يقول له: لم تُكلّف أن تصرف كلَّ ما أوتيت من نعمة إلى

---

(١) هذا من أقوال «بوذا» الذي قامت عليها فلسفته، وتتمَّة القول: «والشر يجلب الشر» وهو معنى صحيح. ينظر كتاب: «رحلة عقل»: (ص: ١٦٨).

باب الإحسان إلى الغير، وتنسى نفسك، فالدِّين يسر لا عسر، وإمَّا أن النصيب من الدنيا هو ما يُحرزه بواسطة تلك النعم في الآخرة، ويكون المعنى أنك إذا لم تبادر إلى اغتنام الفائدة العائدة عليك من نعم الله عليك فقد نسيت نصيبك، وظلمت نفسك بحرمانها من ثمرة تهيَّأت لها؟ وأيُّ ظلم أكبر من ظلم المرء نفسه؟ ويقول الله بعد ذلك: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] يهون عليه أمر الإحسان بأن يُفهمه حقيقة ما هو فيه وأنه إحسان من الله، وأنه مهما ادَّعى لنفسه أن ذلك بقوَّته وكَسْبه وكَدِّه وكَدْحه؛ فما وهبه تلك القُوى، بل ما وهبه أصل الوجود إلا الواحد القهار الذي إن شاء سلبه إحسانه، وكان ذلك جزاء عادلًا على أنه لم يُحسِن كما أحسن إليه.

وما أجمل أن يردف هذا بقوله تخويفًا وإرهابًا: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ فإنها توجِّه إلى النفوس التي تتعاصى على عوامل الترغيب، ولا يُجدي فيها إلا الإنذار والتهديد، ويكفي التعبير عنه بأنه فساد في الأرض، وأن الله لا يحب المفسدين، ومن ذا الذي يطمئن جَنْباه وقد أصبح وأمسى لا يحبه مولاه؟!

هذا شيء من معالجة الدين لعوامل الفَتْك بالنفوس من ناحيتي القوة والضعف، يُتبيَّن به مقدار السعادة العائدة على النفس من الدين، وقد بقي عامل آخر أجلُّ وأعظم، يتجلَّى في الدين الإسلامي أعظم تجلٍّ، ذلك هو وضوح المعتقَد، ومتانة الدليل، وسطوع الحكمة في الأحكام.

وأول آثار هذا طمأنينة النفوس وإنقاذها من الحَيْرة التي تُقِضُّ المضاجع، وإن أكبر منغِّصات الحياة هو الحيرة في ما

كُلِّفت فهمه، أو ضعف الأدلة المؤيِّدة لما أوجب الدِّينُ اعتقاده، أو منافرة الأحكام المكلَّف بها للصالح الخاص أو العام، ولو شاء الله لابتلانا بشيء من هذا ولكنْ رحْمة منه وفضلًا؛ قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولم يطلب منه لمرضاته إلا ما فيه خيرها ونفعها، واعتبِرْ ذلك في الأحكام الخاصة والعامة تجده أوضح من أن يحتاج إلى دليل.

فهل تستهين بنعمة إنقاذ النفوس من تلك الحَيْرة التي تشير إليها؟! وهل تشكُّ في أن العقيدة الإسلامية في وضوحها وسهولة قبولها وساطع براهينها هي الذروة السامية والمثل الأعلى؟!

وإن المجلَّة[1] لتُلِمُّ من حين إلى حين بتفاصيل تجلو ما عساه أن يخفى على بعض النفوس، وإن كانت الشمس لا تحتاج إلى دليل.

وبعدُ:

(١) أي: «مجلة الأزهر».



[أثر الدين في سعادة المجتمع]

فإن ما بينَّاه يشرح أثر الدين في الأفراد فردًا فردًا، وقد بقي أثره في سعادة الجماعة في هيئتها الاجتماعية، وإن هذه السعادة تتنوع إلى نوعين:

سعادة الأفراد

الأول: ما يرتكز على سعادة الأفراد، فإن الجماعة المكوَّنة من أفراد تسود بينهم هذه السعادة يشعرون جميعًا بسعادة مضاعَفة، واعتبِرْ ذلك في شخص مسرور بين قوم مسرورين وآخر عنده أسباب مَسَرَّة الأول ولكنه بين قوم محزونين؛ ترى أن حزن جاره قد نغَّص عليه مسَرَّته، وأضعف ابتهاجه بها، بخلاف الأول فقد استكمل الغبطة والحُبور.



الفضل والعدل

والنوع الثاني: ما تعود أسـبابه إلى الروابط الاجتماعية وعَلاقاتِ ما بين الناس بعضـهم وبعض، وهذا يرجع إلى أصلين عظيمين الفضل والعدل:

أما **الفضل** فبابُه الأخلاق، وقد بلغ من عناية الشرع بها أن كاد ينحصر فيها غرض البعثة في قوله ﷺ: «إنَّما بُعثتُ لأُتمِّم مكارم الأخلاق»[1].

وأما **العدل** فناهيك بأحكام المعاملات، سـواء في سـياسـة المنزل المعروفة بـ«الأحوال الشخصية»، أو في سياسة المدينة المعروفة بـ«الأحكام المدنية»، أو ما يتبعها من أحكام العدو، أو الجنايات التي تضمن ردع الناس عن غَيِّهم وسلامتهم من شرِّهم.

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: (١٤/ ٥١٢، ٥١٣) برقم: (٨٩٥٢) بلفظ: «إنما بُعثت لأتمِّم صالح الأخلاق»، مسند أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولقد جاءت الشريعة الإسلامية -ولله الحمد- بما لا مطلبَ بعده لطالب، ولا تزال الأمم تحيد عنها عمدًا ثم ترجع إليها قهرًا وقسرًا، تقهرها التجارب وتُلجئها المصالح، وما شَذُّوا فيه اليوم فلا بُدَّ من رجوعهم إليه ولو بعد حين، وإن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] كفاية وكفاية، وإنك إذا تصوَّرت حياة قوم قد نضَبَت نفوسهم من مَعين الدين، وانتشرت بينهم الأخلاق المنهية شرعًا، وتصوَّرت ما يكونون عليه من تنابذ وتدابر وشحناء وبغضاء واضطراب أمن وقَطْع صِلات - لتصوَّرت التعاسة مجسَّمةً، وقلت بينك وبين نفسك: الحمد لله على نعمة الإسلام؛ قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وكذلك لو تصــوَّرت حياة فرد قد نبذ الدين ظِهْريًّا واندفع في شــهواته المنهية شــرعًا، ورأيتَ كيف يســوء حاله في ماله وعقله وصحته وشرفه، وكيف تئول به حياة الدعارة والفجور إلى أســوأ حياة وأشــقى معيشــة - لســألتَ الله الســلامة من الفســاد ولقلتَ: «اللّٰهم احفظ علينا ديننا»، تبتغي بذلك حفظ ســعادة هذه الحياة وإن لم تفكر في أمر الحياة الآخرة، وإنْ أنْسَ لا أنْسَ رجلًا شــهدته بالإســكندرية مات أبوه عن ثروة واســعة جدًّا، وقد كســبها بعرق جبينه، فكان على تنميتها والمحافظة عليها جِدَّ حريص، حتى فاته أن يُعنى بتربية أبنائه وتهذيبهم بأكثر من منعهم قسْــرًا عما يشتهون، ولم يؤيِّد ذلك بغرس الفضــيلة في نفوســهم، أو توجيهها نحو الغايات السامية، ولو بإشعارهم بمعنى الكرامة الدنيوية، فما هو إلا أن مات الأب المســــيء حتى اندفع ذلك الابن التَّعِس في حياة

اللهو والدعارة باستهتار وشراهة شديدين، فكان كمن كاد الظمأ يقتله فعثر بماء مثلوج، فكلما شرب اشتدَّ به الظمأ، فلم تمضِ عليه شهور عدَّة حتى ذَوَى[١] شبابه وساءت صحَّته وتملَّكته الأمراض من كل جانب، ولم يكن له بها من عهد، فعرض نفسه على الأطباء، فأشاروا عليه بترك النساء والخمور والسَّهر وحياة اللهو، وأنذروه أنه إن خالف فإنه لا يمضي عليه شهر حتى يفارق الحياة، فاستمع لنصيحتهم أيامًا معدودات، ثم غلبته شِقْوته، واستحكمت فيه شهوته، فعاد مندفعًا بأشدَّ مما كان، فلم يمض عليه شهر من تاريخ مشورة الأطباء حتى فارق الحياة، غير مأسوف عليه من أحد ولا من أهله.

---

(١) أي: ذبَل ويَبِس. ينظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس: (٢/٣٦٣)، (ذ و ي).

أفلا تقول معي: بئسـتِ الحياةُ حياةٌ لا تقوم على أسـاس متين، ولم تُشـيَّد على أركان الدين، والأمثلة كثيرة مع ذلك لا تكاد تحصى.

سعادة الآخرة

هذا شيء من سعادة الحياة بالدين في الدنيا، وأما سعادة الحياة الأخروية فنصوصها في الشرائع جميعها وفي آيات القرآن الحكيم أكثر من أن تُذكر، ويكفي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

أجمع أهل الأديان السماوية على الاعتراف بالبعث واليوم الآخر، وبُنيت الشرائع على تكليف العباد بعقائد وأعمال، وترتيب الجزاء على امتثال التكليف أو عدم امتثاله بالثواب

والعقاب، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وكذلك رأى الفلاسفة والحكماء الذين يستمدون آراءهم من نظر العقل أنْ لا بُدَّ من جزاء في حياة أخرى تتعرض لها النفس الناطقة بعد مفارقة البدن الذي هو من عالَم المادة، بل قد اهتدى بعض أهل الفَتْرة [1] بفطرتهم من غير أن يدرسوا علومًا فلسفية، أو يتلقَّوا شرائع سماوية -إلى أن حياةً بعد هذه الحياة يلقى فيها المحسن جزاء إحسانه والمسيء جزاء إساءته؛ أمر لا مفرَّ منه ولا مندوحةَ عنه.

روي أن بعض رؤساء العرب كان يقول دائمًا: من يظلم يُظلم، ومن اعتدى اعتُدي عليه، فلما رأى أفرادًا استطالوا

---

(١) المراد بالفترة: مدة زمنية فاصلة تقع بين مبعث رسولين، وأهل الفترة هم من كانوا في فترة انقطاع الرسل.

على الناس بقوتهم، وظلموهم معتدين ثم مضــوا لســبيلهم، وانتهـت آجـالهم بـدون أن ينتقم منهم، ولـم يلحقهم أذًى في دنيـاهم، فكَّرَ ثم قـال: والله لا بـدَّ من يوم يحيـا فيـه النـاس ويتقاصُّون، ويلقى كل امرئ جزاء ما عمل؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

أعْمَلَ هـذا ومِثْلُه فِكْرَهم في رَويَّة، فتأمَّلوا في صــنع الحكيم العليم الذي أَبْدع خلق هذا العالم على أكمل نظام، وأعطى كل نوع كماله الذي يناسبه، فلم تقبل عقولُهم أن يترك أفراد الناس فوضـى يتطاحنون، ويتظالمون، ويُمكَّن بعضـهم من قهر بعض بلا رادع ولا وازع، ثم يمضـون هكذا لسـبيلهم بدون أن يُقتَصَّ لبعضهم من بعض، ورأوا أن ذلك لا يتفق وما يرون من كمال الإتقان والإبداع، ومظاهر الحكمة والعدالة التي تتجلَّى في خلق العوالم المتنوِّعة بســائر نواحي وجودها

كلِّيةً وجزئيةً، فجزموا بما جزموا به بفطرتهم، وإن لم تَصِلهم تفاصيل الشرائع السماوية وأحكامها، مما جاء به الأنبياء والمرسلون على وجه يكفي في الإيمان والإذعان.



[العقول السليمة وقضية البعث]

هكذا رأت العقول السليمة بفطرتها، وإلى هذا وصل حكماء الفلاسفة ببحوثهم، وبهذا وردت الشرائع السماوية برُمَّتها، وعلى هذا درَجَت الأمم المتديِّنة قديمها وحديثها.

ولقد شذَّ عن هذا بعض الناس في بعض الأحيان والعصور، فقالوا: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون:٣٧]، وإنك إذا فحصت حال هؤلاء وتأمَّلت في دخائل نفوسهم وجدت لهم دواعيَ نفسية دَعَتهم إلى التمسك بهذه المقالة والإصرار عليها، واضطرَّتهم إلى التفتيش عن مستنَدٍ لها مهما ضَعُف، ففتَّشوا حتى عثَروا بشُبهٍ واهية تخيَّلوها أدلَّةً ثم خالوها، إذ كانت توافق أغراضهم، فعمِلوا على تثبيتها حتى دانت لها نفوسهم وخَلَدوا إلى السكينة عندها.

فأما دواعيهم إليها فإنها لا تعدو الحرص على تحقيق رغائب النفس الأمارة بالسوء – من انغماس المترَفين في شهواتهم ولذائذهم، غير منغَّصين بعقوبة متوقَّعة، أو استمراء الأقوياء الظالمين مراتعَ الظلم الوخيمةَ غير مروَّعين بقصاص عادل، فليس أبغض إلى المستهتر في شهواته العاكف على لذَّاته، ولا أثقل على سمع المعتدِّ بقدرته، المُفتات على الضعيف بفضل قوَّته -من أن تذكِّره بأن هناك جزاء عادلًا وقصاصًا شاملًا لا يُنجِّي منه مال ولا بنون، ولا تنفع فيه شفاعة الشافعين.

هذه الفكرة مروِّعة للظالم، منغِّصة للمُترَف، مفسِدة على كليهما ما يشعر به من لذَّة، سواء أكانت لذة الاسترسال في اللهو، أو نشوة النصر والغلبة والقهر، ومن ذا الذي يسمح للمُنغِّصات أن تدخل عليه بلا استئذان، أو للمُروِّعات تَلِج

إلى نفسه من أي باب، فالمرء مجبولٌ على أن يحتاط لنفسه؛ فلا يسمح لأي غبار أن يعكِّر عليه صَفْوه.

فحين يَقْرَع سَمْعَ هؤلاء مِثلُ هذه الكلمات، فتحدث في نفوسهم أثرها الطبيعي؛ يثورون عليها بطبعهم، ويهاجمونها بكل قوَّتهم، ويبحثون بكل ما يملكون عن شيء يُميت هذه الفكرة المنغِّصة للَّذات، المفسِدة للشهوات، المعكِّرة للصَّفو، المفوِّتة للَّهو، فإذا لم يجدوا ما ينشُدون تمنَّوا ولو شبهة، ثم تخيَّلوا ما تمنوه حاصلًا، ثم خالوا ما تخيلوا حقيقةً واقعةً، بل زعموه أدلَّة ساطعة.

وهكذا يتخيَّل المرء على ما يوافق غرضه بأية حيلة، ويسلك إليه أوْهَى وسيلة، ولو خُلِّي هؤلاء وعقولهم، ولم تعبث بتفكيرهم أهواؤهم؛ لكان أدنى مراتب الحكم أن البعث إن لم يكن ثابتًا جزمًا فهو على الأقل أمر محتمل،

فيصح الاحتياط من الواقع في شره أو التعرض لضرره، بل العقل يوجِب الحذر للنفس والتوقِّي من التعرض للخطر والضرر، ولو على سبيل الاحتمال، فمن المجازفة الممقوتة، بل من الجناية على النفس تعريضها لعقاب شديد وعذاب أليم لا تأمن الوقوع فيه، ولا دليل لها على النجاة منه، ولا طريق إلى الأمن من الوقوع فيه، ويصح أن يقال فيه على الأقل ما قاله الأول:

قال المنجِّمُ والطبيبُ كلاهما ... لا يُبْعَث الثَّقَلانِ قلتُ إليكما

إن صحَّ قولُكما فلستُ بخاسر ... أوصحَّ قولي فالخَسارُ عليكما[1]

ولا أظنُّك تجد فردًا واحدًا يفكِّر في أمر البعث بدون أن تدفعه غايةٌ خاصة إلى جهة معينة، بل يكون غرضه الحقيقي فَهْم الأمر على ما هو عليه، ثم يجزم من قَرارة نفسه بأن البعث

(١) البيتان لأبي العلاء المعرِّي. ينظر «اللزوميات»: (٢/ ٣٠٠).

لن يكون قطعًا، نكاد نجزم بأنه لا يمكن أن يوجد مفكِّر بلا غاية خاصة، يصـــل به التفكير إلى هذا الجزم؛ فإن أمر البعث على فرض أنْ لم تَكْفِ الأدلَّة المثبِتة لوقوعه فإنه لا توجد أدلَّة تقوم على نفيه، فاحتماله على الأقل لا يزال قائمًا، فالحَيْطة له والحذر من التعرض لخطره، وصَــوْن النفس عن أضــراره المحتملة - أمر يُحتِّمه العقل ويوجِبه الاحتياط، كل هذا بقطع النَّظر عن نصــوص الشــــرائع التي لا ســبيل إلى التخلص منها.

ولكنْ مَن لك بأن تُقنع عصــابات الشــــر وجماعات اللصــوص وقُطَّاع الطريق أن يفكِّروا في أمر العقوبات والقوانين، وأن يُذعِنوا إلى أن لهم حكومة ساهرة على الأمن تتعقَّب المجرمين حتى تظفر بهم فتوقع بهم عذاب الهون؟!

إنك مهما جاهدت في أن توجِّه تفكيرهم إلى هذا ما رأيت منهم إلا اشـمئزازًا، بل ازدراءً لمن يُعرِض عليهم مثل هذه الفكرة، وسَـدًّا للآذان، وإغماضًـا للجفون؛ حتى لا تَقْرَع أسماعَهم المزعجاتُ، ولا تبهر أبصارهم الآياتُ الواضحات، ولو أنهم راضُـوا أنفسـهم على التفكير فيما تدعوهم إليه ما ارتكسـوا فيما ارتكسـوا فيه، ولكانوا إن لم يسـتجيبوا لداعي الفضيلة فرُّوا من العقاب الذي قد يربو أضعافًا مضاعفةً على ما يُحرزونه من مال أو متاع بتمرُّدهم وطغيانهم، ولقالوا في نفوسهم: إن الضـرر أكبر من النفع، وإنك لتجد أقربَ جواب حاضـر لديهم إذا ما نبَّهتهم إلى شـناعة ما هم فيه، ووخامة عاقبته عليهم في الدنيا من حبس أو تعذيب - قول القائل:

من راقَب الناسَ لم يَظفرْ بحاجَتِهِ ... وفاز بالطَّيبات الفاتِكُ اللَّهِجُ [١]

---

(١) البيت لبشَّار بن بُرْد، ينظر «ديوان بشار بن برد»: (ص: ٦٠).

أو قول مَن سَرق منه[١]:

مَن راقَب الناسَ مات همًّا وفاز باللَّذَّة الجَسُورُ[٢]

هل رأيتَ مرَّةً مجرمًا يفكِّر فيما هو عُرْضة له من عقوبة؟ لو فكَّر في ذلك لارتدَع من أول الأمر، ولو فُرِض أنْ خاطب أحدُ المجرمين رفقاءه يذكِّرهم، لثاروا في وجهه: إن هذا جُبْن وخَوَر، فلْتكن مقدامًا ولا تفكِّر في مثل هذا، ودَعْ عنك الهواجس والخُزَعبلات، وهكذا شأن المجرمين إذا دُعوا إلى التفكير في البَعث والجزاء الأخروي.

---

(١) إنما عنى المؤلِّف بقوله: «أو قول مَن سرق منه» سَلْمًا الخاسر، فقد سرق من بشار معنى البيت، كما سيأتي.

(٢) البيت لسَلْم بن عمرو بن حماد البصري المعروف بـ «سَلْم الخاسر» وهو من شعراء العصر العباسي (ت: ١٨٦هـ)، وكان تلميذًا لبشَّار بن بُرْد، ولما قال بشار بن برد بيته المذكور آنفًا أخذ سَلْم معناه، وجاء به في أجود من ألفاظه وأفصح وأوجز، لكن رواية الديوان: «مات غمًّا». ينظر في ترجمته: «طبقات الشعراء» لابن المعتز: (ص: ٩٩ وما بعدها).

ولعل هذه الحالة النفسية مما يُلْمِع إليه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يَزْنِي الزَّاني حينَ يَزْنِي وهو مؤمِنٌ»[(١)]؛ أي إنه لا يمرُّ على خاطره مقتضَى إيمانه، وإلا كان إن لم يَرْدَعْه الخوف من العقاب منعه الحياء من مالك الرِّقاب.

نعم ليس أثقل على نفْس المجرم من التفكير في مآله وصيرورة حاله، ولا يزال يعرض عن ذلك ويتناساه حتى يُرانَ على قلبه وينساه، ثم ينتقل إلى أن يجزم بخلافه ويتلمَّس أَوْهى الأسباب يتمسَّك به؛ حتى يُقنع نفسه ومن قَدَر عليه قهرًا أنه لا شيء مما يخاف بواصل إليه، وإذا قُدِّرت له

---

(١) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في «صحيحه»: (١٣٦/٣) كتاب: (المظالم والغصب)، باب: (النُّهْبَى بغير إذن صاحبه)، حديث رقم: (٢٤٧٥)، ومسلم في «صحيحه»: (٧٦/١) كتاب: (الإيمان)، باب: (بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبِّس بالمعصية على إرادة نفي كماله)، حديث رقم: (٥٧)، كلاهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

السلامة مرَّة ومرة اتخذ ذلك ذريعة للاسترسال في غِوايته والاجتهاد في تثبيت ما زعمه عقيدة، ومُحالٌ -مهما حاول أن يظهر بأنها عقيدة- أن ترسخ الرسوخ الحقيقي الذي هو من شأن العقائد، بل هي مزعزعة بأي ريح تمرُّ عليها لولا التشبث الشديد الذي يبعثه في نفسه حرصُه على استيفاء اللذائذ.

فمثل هؤلاء مثل منكري البعث -والكلُّ من فصيلة واحدة يجمعهم التغافل عن العواقب-أو يقولون: من الذي بُعث من الآباء والأجداد على تقادم العصور والأحقاب؟ هل عاد أحد منهم وخبَّرنا أن بعد الموت حياة؟

وإذ لم نسمع ممن مضَوا وهم الذين شهدوا وعرفوا فلا يكون لذلك حقيقة ولا ثبوت، كأنهم إذ لم يروا ولم يسمعوا ممن رأى وشاهد لا يكون عليهم سلطان، ولا يقدر عليهم ديَّان، فما أشبههم بالنَّعامة تدفن رأسها بين حجرين، لكيلا

ترى الصـيَّاد ظنًّا؛ منها أنها إذا لم تره لم يرها فتسـلم، وبذلك تستسلم حتى يدركها حتْفُها في غفلتها[١].

ولعلك قائل إن هذا إسراف من الكاتب في تصوير ما عليه المنكِرون، فيرى أنهم يشـعرون بـالبعـث ويتغـافلون عنـه ويتناسَـونه، ولكن ما هم في ذلك من شـيء، فهم ينكرونه من قرارة نفوسـهم ويرون أنه لن يكون، ولعل الكـاتـب حكمت عليه عقيدته فتخيَّل كلَّ الناس على رأيه؛ إذ قاس العقائد عند الناس بما حقُّه أن يكون في نظره، وإلا فـالمنكِرون منكِرون وكفى.

وأقول: على رِسْلك ورُوَيْدَك رُويْدَك! إن مَن نظر في كلام قُدمائهم على تعدُّد طبقاتهم وتبايُن مَنازعهم، ثم تحدث إلى

---

(١) هذا قول -وإن كان مشهورًا- إلا أنه غير صحيح؛ فالنعامة إن أحسَّت بالخطر فإنها تُطلق ساقيها للرياح، وهي سريعة العَدْو، فتهرب من عدوها.

مُحْدَثيهم الذين درجوا على سَنَنهم، لا يجدها تعدو ما قدَّمنا لك من أن أمر البعث أمْرٌ سمعنا به وما شاهدناه، وما لنا به من علم.

ومعنى ذلك أنهم لا يصدقون بوجوده، لا أنهم يجزمون بعدم حصوله، وفرق ما بينهما، أو يقولون كما حكاه القرآن الكريم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧، ٤٨].

ومعنى ذلك أنهم يَستبعدون أن تعود إليهم الحياة بعد أن ابتعدوا عنها، ومعنى ذلك أنهم في شك واستبعاد، لا أنَّ لديهم الجزم بالنفي، ومثل هذا قولهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [يس: ٧٨]، فكأنهم ما حَيَّرهم في أمر البعث إلا عجزُهم عن تصوُّر من يقوم به، وأما

تصور الموجِد للحياة الأولى بلا سابقة حياة فهو أمر غير محيِّر عندهم.

نعم، حاول فئاتٌ منهم أن يُبرهنوا على استحالته؛ مبالَغةً منهم في الأمن منه، وجلبًا للطمأنينة الموهومة ليخلو لهم الجو، فكَدُّوا قرائحهم، وأجهدوا نفوسهم، وما ظفَروا من ذلك بما يَبُلُّ رِيقَهم ويحرِّك في أفواههم أَلْسنتهم؛ إذ كان كلامهم من جنس هذه الكلمة: لو كان المعاد هو الأول لعاد بشخصه وبجميع مشخّصاته، ومن مشخصاته وجودُه في الوقت المعين الأول، فإذا كان وجوده في وقت آخر كان مغايرًا للموجود الأول، فكان المعاد غير الأول.

والعجَب منهم أن يدَّعوا لأنفسهم العقل حتى مع هذا الهذَيان، فهل يرون أنهم يوم اكتملوا حتى قالوا هذه المقالة: هم غير من ولدتهم أمهاتهم أطفالًا على فراش آبائهم؟!

فكيف إذًا ينتسبون إلى آبائهم ويتوارثون معهم ويكلِّفونهم أن يربوهم، وقد صاروا شيئًا آخر بمجيء وقت آخر؟! وإنها لسخافة لا تستحقَّ الالتفات إليها ولا الرد عليها.

وما أحسن قول أستاذ لتلميذه في إفحامه وقد قال بمثل هذه المقالة: «أنا لا يلزمني الردُّ عليك؛ فإن السائل والمسئول قد مضيا لحالهما وجاء خَلْق جديد غيرهما بتبدُّل الوقت»!

وأحسن منه أن واحدًا صفع صاحب هذه المقالة على وجهه، فلما أراد الاقتصاص منه قال له: «عَلامَ؟ قد ذهب الضارب والمضروب وجاء بدَلَهما شخصان جديدان».

فترى أن أمر البعث لا تكاد نفسٌ تصل إلى دليل أو شبهة تَصِف به قِدَمها، وتستطيع أن تثبت استحالته وعدم إمكانه أو الجزم بأنه غير حاصل، وغاية متمسَّكهم أنهم لم يجزموا بحصوله فزعموا أنهم جزموا بعدم حصوله.

[أقسام الناس في الإيمان بالبعث والجزاء]

أما بعد، فالناس في أمر البعث قسمان:

فريقٌ لا يقول بدِينٍ ولا يعتقد بصدق أحدٍ من الأنبياء والمرسَلين، وهؤلاء منهم من هَدَتْه فكرتُه ودلَّته فطرتُه على أنْ لا بدَّ من يوم يحاسب فيه الناس على أعمالهم ويُجزون بما كان منهم، ومنهم من سمع بمثل هذه الكلمة فنَأَى عنها أو حاربها جهد استطاعته؛ فرارًا من صدمتها له في رغائبه وأغراضه.

وفريقٌ متديِّنٌ ومعتقِد صدْق الأنبياء والمرسَلين، وهؤلاء كلُّهم معترفون بالبعث واليوم الآخر، ولكن منهم من يعترف بالبعث بالجسم والروح، ومنهم من يقول به ولكن بالروح فقط [١]؛ إذ كانت إعادة الأجسام عنده محلَّ إشكال، فذهب

(١) ينظر تفصيل هذه المسألة في «الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحل»: (٤/ ٦٧) لابن حزم.

إلى التأويل في النصــوص الشـــــرعية؛ جريًا على القاعدة المقرَّرة أن: ما ورد من النصــوص وكان إجراؤه على ظاهره غيرَ ممكنٍ وجَب تأويله.

شبه المنكرين للبعث

وليس من غرضــنا في هذه الكلمة أن نعرض لإثباته على فريقٍ من لا يقول بالأديان، ولا يذعِن للتصــديق بنبوة الأنبياء ورســالة المرسَــلين، فهؤلاء قد أقام القرآن في وجههم من الآيات البيِّنات ما يَفهم كلُّ من عنده أدنى عقلٍ إذا لم يُغمِض عينيه عن النور، ولم يجعل أصابعه في أذنيه فرارًا من صَيْحة الحق.

وإنما كلامنا مع مَن صــدَّق بالشـــــرائع وأذعن لدلالة النصــوص، وزعم أن البعث الجســماني أمر غير ممكن أو لا فائدة منه، فيجب تأويله وصَــرْفُه إلى البعث الروحي، وتأويل ما ورد في أمر النعيم والشــقاء بأنه كنايات لتقريب اللذائذ

الروحية إلى الفهم، بتشبيهها باللذائذ الجسدية التي أَلِفها الناس وركنت لها نفوسهم، حتى أصبحت أكبر عامل في اجتذابهم والتأثير على ميولهم، وكلام هؤلاء في شعبتين:

الأولى: أن إعادة الأجسام غير مُمكِنة.

الثانية: أنها لا فائدة لها.

فأما الأولى فقدِ استنَدوا فيها إلى شُبَهٍ بعضُها أوْهَى من بعضٍ، قالوا أولًا: تلك الكلمة التي سبق أن حكيناها عن بعض المنكرين، وهي أن المعاد يلزم أن يستوفي كل مشخّصات المبدوء، ومنه وقتُه الذي وُجِد فيه، وحينئذ يلزم أن يكون البدء غير الإعادة، وقد عرفتَ أن اتحاد الوقت غير لازم في اتحاد الذات مطلقًا، ولا يقول به إلا من نسي نفسه وغفَل عن ذاته، وأنه هو نفسه الذي يُبدي كلامه وهو الذي يُتِمُّه، وقد بدأه في وقت وأتمَّه في وقت آخر، بل هو نفسه الذي ولد صغيرًا وعاش حتى هرم وشاخ، وهو هو الذي

يموت بعد أن يستوفي أَجَلَه، بل إذا فُرض أن تقطَّعت أجزاؤه ونبت له غيرها ما كان ذلك بمغيِّرٍ شخصيته، ولا بمخلٍّ بوَحدته، وعلى العموم فسَخافة هذه الشُّبهة أوضح من أن تحتاج إلى عَناء.

وقالوا ثانيًا: قد يصحُّ أن يأكل شخص شخصًا، فيمزج بدن هذا ببدن ذاك، فهل الأجزاء التي دخلت في جسمين تُعاد مع الأول أو مع الثاني أو مع كليهما؟

وقد يرى بعض الناس أن هذه الشبهة من القوة بحيث لا يمكن التخلص منها، ثم يعزِّزها بفروض قريبة الوقوع؛ كأن يقول: قد يغرق شخص فتأكله الأسماك، حتى يتَّحد بجسمها، ثم يأكل هذه السمكة شخص آخر تتحد بجسمه، أو يقول: قد تتحاتَّ أجزاؤه وتصير ترابًا، تمتزج بنبات تمتصُّها جذوره ثم نغتذي بهذا النبات.

وأمثال هذه الفروض كثير، ويستأنس بقول الشاعر:

صـــاحِ، هَـذِي قبورُنـا تملأ الرَّحْـــــبَ فأين القبورُ من عهدِ عادِ
خفِّفِ السَّـــيْرَ مـا أظنُّ أديمَ الـأرْضِ إلَّا مِن هذه الأجسـادِ (١)

وإنك لتجد الكثير مولعًا بهذه الشبهة يتشدَّق بها؛ إما طربًا لها إذ وافقت هواه، وهو تخليص رقبته من رِبْقة التكليف، وإما ارتباكًا في أمرها وتحيُّرًا في كيفية الخلاص منها، فإذا تأمَّلت ما سيُتلى عليك لم تجد لها من الشأن ما يستحق كل هذا، وذلك:

الرد على هذه الشبهه

أوَّلًا: أن هذا أمر إنما يعني من يقوم بتنفيذ الإعادة والبعث، وهذا أمر لم يُنَطْ بنا حتى نهتمَّ بتعرف كيفيته وتدبير تنفيذه، فالذي أخبر به هو الذي تكفَّل به؛ قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [الحج: ٦٦].

---

(١) البيتان لأبي العلاء المعري، من قصيدة «ضجعة الموت رقدة»، والرواية فيها: «خفِّف الوطء» بدلًا من «خفف السير». ينظر: «سقط الزند»: (ص: ٧).

ثانيًا: قال العلماء: إن الذي يُعاد هو الأجزاء الأصلية التي لا تتبدَّل ولا تزيد ولا تنقص، وتبقى من أول العمر إلى آخره، فمن فرض أنه أكل شخصًا أو أكل حيوانًا أو نباتًا اغتذى من شخص، كانت الأجزاء المأكولة معادة للمأكول لا للآكل؛ إذ لم تكن من الأجزاء الأصلية التي وُجدت من أول خلقته إلى آخرها.

ثالثًا: فإن الأجزاء ليست هي نفسها التي تحسُّ الألم واللذة وتدرك النعيم والشقاء، وإنما المدرِكُ الروحُ والنفْسُ وإحساسها -على ما سيأتي تفصيله في تفنيد الشبهة الثانية- تارةً يكون بلذة وألم روحانيين: كالغِبْطة التي تشعر بها النفس السامية إذا أدركت منزلة من منازل المجد والرفعة، والمذلَّة والانكسار التي تلحق ببعض النفوس حين تُبتلى في كرامتها، وتارةً يكون بلذَّة وألم جسميين: كلذائذ الطعام والشراب،

وآلام الضرب والجراحة مثلًا؛ ففي كلتا الحالتين المحِسُّ هو النفس لا الجسم، وإنما تحسُّ النفس بلذَّة جاءتها من طريق الجسم، ألا ترى من عُمل له عملية جراحية في بعض أعضائه يكفي في عدم إحساسه بالألم تعطُّل وسائل التوصيل بين العضو وبين مركز إحساس النفس الذي هو المخ؟! وتلك الوسائل هي أعصاب الإحساس؛ فحياة العضو باقية، وطرق التوصيل مسدودة، فلم تحسَّ النفس بألم العضو، حتى إذا زالت أسباب التعطيل أحسَّتِ النفس بما في العضو من ألم.

وعلى ذلك فمعنى اللَّذَّة والألم الجسمانيين هو تلذُّذ النفس وتألُّمها من أمر حلَّ بجسمها، ولا يُفهم من هذا أن المعاد هو الروح لا الجسم، بل معناه أن الجسد يُعاد لتكون النفس عرضةً لنوعين من النعيم والشقاء.

الأول: ما يلحقها لذَّاتها وهو النعيم والشقاء الرُّوحانيان، كنعيم اليقين وألم الحيرة.

والثاني: ما يلحقها لجسمها؛ كنعيم المأكل والمشرب وألم التعذيب بالنار، على ما سنذكره في دفع الشبهة الثانية من شبهتهم.

الشبهة الثانية من شبهتهم قولهم: إن بعث الجسم لا فائدة منه؛ ذاك أن الروح هي المُدرِكة وهي الشاعرة، وهي المحِسَّة باللذائذ والآلام، وأما الجسد فهو في ذاته -لولا الروح- جماد لا إحساس له، وإذا كانت النفس هي المُحِسَّة الشاعرة، بل كانت -بالحقيقة- هي المكلَّفة والمخاطَبة فلْتكُن هي المُثابة والمعاقَبة، وإذا كانت لذائذ النفس والروح غير لذائذ الجسد فلْيكن معنى النصوص الواردة في الشرائع تمثيلًا للذائذ المعنوية الروحية باللذائذ الحسِّية الجسدية؛ إذ كانت هي

المعروف للناس المألوف لهم الغالِبة على ميولهم، فهي المؤثِّرة في نفوسهم بالرغبة أو الرهبة.

فما جاء من مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الواقعة ١٠ – ٢٤]، ومن مثل قوله تعالى:

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾[الواقعة: ٤١ – ٤٤]، أو قوله: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ

﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ [الدخان: ٤٣ – ٤٦]، أو قوله جل شأنه:

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٥]، وأمثال ذلك من آيات النعيم أو العذاب الأليم.

زعموا كل ذلك من باب التمثيل للذائذ والآلام الروحية المرادة باللذائذ والآلام الجسدية المعروفة، وزادوا في ترويج شبهتهم أسلوبًا فلسفيًّا فقالوا: إن الإنسان وسط بين طرفين؛ طرف منحَطٌّ هو البهائم أو الشياطين، وطرف سامٍ هو الملائكة، والشرائع جاءت لتسموَ به إلى الطرف الأعلى الملَكي، فكلما جدَّ في امتثالها صعدت روحه إلى الملأ الأعلى، حتى يلتحق بالعالَم الملكي الصِّرف، فيكون أسمى

من أن يتطلع في هذا الدَّور الكامل إلى الجسد ولذائذه المادية، أو أن يعبأ بآلام جسمية.

وأما إذا ارتكَس الإنسان في الشهوات البهيمية، أو غلبت عليه الشرور الشيطانية فإنه ينحطُّ في حياته الأخرى، فيلتحق بالشياطين الذين تكوَّنوا من الشرِّ، وفي الشر يعيشون، فهم دائمًا حيارى قلقون، وفي حياتهم مضطربون، لا يفارقهم الكَدَر والكآبة والانقباض، بينما الآخرون في غبطة وسرور؛ أو يلتحق بالبهائم فيُحرم لذَّة الفهم والعلم والنور، فتكون حياته الأخرى لاغيةً، ويكون من المهمَلين.

هكذا قالوا، وهكذا روَّجوا رأيهم وخدَعَتْهُم شقاشقُ [١] أَلْسِنتهم، وبهرَتْهم بَوارقُ [٢] فلسفتهم، وما كانوا في شيء منهما بموفَّقين، لا في نظر الشرع والنصوص النقلية، ولا في نظر العقل والآراء الفلسفية.

وإنا نطلب إليك أن تُبعد عن نفسك السآمة والمَلَل، وإن طال بنا وبك القول، فللأمر أهميَّةٌ كبرى، وليس كبيرًا عليها أن تمنحها قسطًا وفيرًا من وقتك ونشاطك، والله يتولانا وإياك بالهداية إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

---

(١) الشقاشق، جمع شِّقْشِقة: وهي لَهاةُ البَعير، وقيل: هو شيء كالرِّئة يخرجها البعير من فيه إذا هاج، ومنه سمِّي الخطباء شقاشق، شبَّهوا المِكثار بالبعير الكثير الهَدْر، ويقال هدَرَت شقشقة فلان ثار أو أفصح في كلام، ويقال فلان شقشقة قومه زعيمهم المتحدث عنهم. ينظر: «لسان العرب»: (١٠/ ١٨٥) (شقق)، «المعجم الوسيط»: (١/ ٤٨٩) (شقشق).

(٢) البوارق، جمع بارقة، وكلُّ شيءٍ يتلألأ لونُه فهو بارِقٌ. ينظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد: (١/٣٢١)، (ب ر ق)، «مقاييس اللغة»: (١/ ٢٢٢)، (ب ر ق).

أما النصوص الشرعية فلا أحد من المسلمين أو من غير المسلمين من المتديِّنين يخفى عليه النصوص الواردة في الشرائع السماوية، من حكاية النعيم والعذاب وتفصيلها، حتى تحتاج إلى سرده، وقد ذُكر فيما مضى طرفٌ منه.

وأما التأويل فيُصار إليه إذا لم يستقم المعنى الصريح، فما وجه عدم استقامته؟ أم عدم الإمكان فقد سبق لك القول فيه واستيفاؤه، وأما عدم الفائدة، والتوجيه بما ذكروا من أن النفس هي المحِسَّة وهي المدرِكة؛ ففي نفس تقسيمهم ما يشهد بأن لذائذ النفس قسمان، وآلامها كذلك في هذه الحياة، فلْتكن فائدة الثواب والعقاب الجسديين في الآخرة أن تستوفي النفس حظَّها وقِسْطها من الجزاء، سواءٌ منه ما يلحق النفس مباشرةً كالفرح والاستبشار والرِّضا، وكالكآبة والحزن والقلق، أو ما يلحقها بواسطة جسمها: كالمطاعم والمشارب

وما معها، وكتحريق الجسم وتَكراره؛ قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

أما النظر العقلي والاعتبار الفلسفي -كما يتشدَّقون به- فإن العقل يحكم بأن الجزاء الأوفى هو ما يكون من جنس العمل، وكمال العدل يقتضي أن من عمل عملًا من جنسٍ فحقُّه أن يستوفي أجْرَه من ذلك الجنس.

[أنواع التكاليف الشرعية]

وقد جاءت التكاليف الشرعية على نوعين:

نوع منها يرجع إلى النفس بدون مَدْخلية الجسم والجوارح؛ وذلك كالإيمان وهو أصل التكاليف، وكتطهير النفس من رذائل الأخلاق الممقوتة: كالحسد، وكالكِبْر، وبُغْض الناس، وإضمار الحقد عليهم.

ونوع يرجع إلى النفس بواسطة الجسم والجوارح؛ كالصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، وأمثالها، وكالكفِّ عن الزِّنى والقتل، وأكل مال الغير ظلمًا، وأشباهها.

فحين نُحكِّم النظر العقلي ونرجع إلى ما يسمُّونه بـ «الآراء الفلسفية»، ألا ترى أن من العدل وقضية العقل أن يستوفي المكلَّف جزاءه من الجنسين النفسي المحض والنفسي الآتي من طريق الجسم؟!

نعم، هذا هو ما تقتضيه العقول الراجعة في تفكيرها إلى فطرتها السليمة، التي لم تعوَّجْ بالْتواء الأهواء بها، وهذا هو عين ما جاءت به النصوص الشرعية، وما يعطيه التأمل في تفاصيل الجزاء في اليوم الآخر؛ فإنك إذا تأمَّلت في تلك التفاصيل الواردة تجدها قد جاءت طبق هذا الأصل تمامًا.

انظر إلى الإيمان -وهو أصل هذه التكاليف وأفضل الأعمال على الإطلاق- تجده من قبيل العلم والتصديق، وللعلم لذَّته يعرفها من عانى شيئًا منه، وتزداد هذه اللَّذَّة بازدياد اليقين، وأرقى أنواع اليقين المشاهدَةُ، وتزداد أيضًا بشرف المعلوم.

فهل تنبَّهتَ إلى أن الحكيم العليم الحَكَم العدل اللطيف الخبير الغفور الشكور قد جازى المؤمنين على إيمانهم في دار الكرامة بأرقى أنواع العِلم، متعلِّقًا بأكمل ما يمكن أن

يُعلم، فمنحهم -جلَّ شــأنه- رؤيته والنَّظر إلى وجهه الكريم في دار كرامته؟! وأن لها من اللذَّة ما يصغر أمامه نعيمُ الجِنان مهما عظُم وازداد، حتى قيل: إن أنواع النعيم تكاد تكون آلامًا إذا قيســت بنعيم الرؤية ولذَّتها، أليس في هذا أحســن جزاء وأوفاه؟! وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

واعتبِرْ بما تراه من أحوال نفسك إذا ملَكَك الغيظُ، ولم تستطع تصريفه وتفريج كُرْبة نفسك، حتى انقلب ذلك إلى غلٍّ -حماك الله ووقاك شرَّ الغِلِّ- فإن كنت سليمًا من هذا النوع المرذول من الخُلُق -خلق الغل والحقد- فاحمدِ الله في

نفسك واعتبِرْ آثاره فيمن ابُتلي به، وتأمل قول حكيم: «لله درُّ الحقد ما أعدله! بدأ بصاحبه فقتله»(١).

---

(١) لعل الشيخ يقصد القول المشهور: «لله در الحسد ما أعدله! بدأ بصاحبه فقتله»، وهو منسوب إلى أعرابي اتخذه الخليفة المعتصم نديمًا، فغار منه وزير المعتصم وحسده، فمشى بالنميمة بينه وبين المعتصم؛ حتى نوى المعتصم قتله، فكتب كتابًا إلى بعض عماله يقول له فيه: «إذا وصل إليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله»، ثم دعا بالبدوي ودفع الكتاب إليه وقال له: امضِ به إلى فلان وائتني بالجواب، فامتثل البدوي ما رَسَم به أمير المؤمنين، وأخذ الكتاب وخرج به من عنده، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير، فقال: أين تريد؟ قال: أتوجَّه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان، فقال الوزير: هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل، فقال: يا بدوي، ما تقول فيمن يُريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك ويعطيك ألفي دينار؟ فقال له: أنت الكبير وأنت الحاكم، ومهما أردت افعل، فقال: أعطني الكتاب، فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفي دينار، وسار بالكتاب إلى المكان، فقُتل الوزير؛ ثم إن المعتصم سأل عن الأعرابي فقالوا له: هو موجود، فاستدعاه فسأله، فحكى له ما كان، ولما علم الأعرابي بمقتل الوزير قال: «قاتل الله الحسد ما أعدله! بدأ بصاحبه فقتله». ينظر: «المستطرف في كل فن مستظرف»: (ص: ٢٢١، ٢٢٢).

فإذا رأيت أن الحقد في الدنيا يُؤلِم إلى درجة أن يقتل صاحبه أو يستلَّ نفسه منه تدريجيًّا ويسلب هَناءة حياته جملةً، فكم ترى من النعيم واللَّذَّة في نزع الغِلِّ من صدور المؤمنين؛ جزاء لهم على تطهيرهم أنفسهم من شروره في الدنيا، وامتثالهم معنى الحديث الشريف: «مَثَلُ المؤمِنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم كمَثَلِ الجَسَد الواحد إذا اشتكَى منه عضوٌ تَداعَى له سائرُ الأعضاء بالسَّهَر والحُمَّى»(١).

فهذان مثالان من النعيم الرُّوحي واللَّذائذ النفسية الصِّرْفة، وتراها تُقابل معانيَ من جنسها.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»: (١٩٩٩/٤)، كتاب: (البر والصلة والآداب)، باب (تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم)، حديث رقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أفليسَ يروق في نظر عقلك فلسفيًّا أن تقول: إذًا يحسُن أن يكون جزاء من أجاع نفسه في الصيام وأظمأها وكفَّ -على الجملة-عن المنهيَّات من شهوتَي بطنه وفرْجه أن يُطعَم من طعام الجنة ويَهْنأ من شرابها، ويستمتع بحُورها؛ جزاء وفاقًا على ما عمل؟!

أليس من حق من جاهد في سبيل الله، وسافر في طريق الحج والهجرة أن يأوي إلى ظل ظليل، وأن يكون من أصحاب اليمين: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٢٨-٣٤]، وأن يكون له في مقابلة أن هجَر فراشه وعَفَّ نفسه عما نُهي، أن يكون له من المُتَع ما تَقَرُّ له عينُه ويُسَرُّ له قلبُه، ممن وصفهم ربهم بقوله جل

شأنه: ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٨].

واعتبِرْ مثل ذلك في أصحاب الجحيم في أمثال قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٥]، وتأمَّل تلك الحسرات التي تفيض بها نفوس الكفار حين يقولون: ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴾ [ص: ٦٢] تجِدْ غيظ المخذول وألم المخدوع، الذي تبيَّن له الأمرُ بعد فوات الوقت، فشَمِله النَّدم، ولاتَ ساعة مَنْدَمِ!

هذا هو حكم العقل، وقضية العدل وما يقضـي به صحيح الرأي، فكيف وهو صريح الشـرع ومدلول النص؟! وما كان



تأويله إلا عن ضعفٍ في الإدراك وقِصَر في النَّظر، ونعوذ بالله من الخذلان.

شبهه وردها:

أما قولهم: إن العالَم الملَكي هو المثل الأعلى الذي تسمو إليه النفس الإنسانية، فهو -إن صحَّ- ليس معناه أن ينهدم ركنٌ من ركني الإنسانية وهو الجسد، ويُهمل بتاتًا ويصير روحًا بلا جسم، وإلا فلو كان الأمر كذلك ما استقام أن يكون النوع الإنساني هو صفوة الخلائق على الإطلاق، كما يقتضيه منحه لقب الخلافة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وكما يدل عليه أن الملائكة تمنَّوا مكانه.

ففي الحقيقة قد جمع هذا النوع الإنساني بين النفس الملَكية والجسم المادي، واستخدم كلًّا منهما فيما صلح له،

فتعاونا على ما لا تقوم به النفس المجرَّدة ولا الجسم وحده، ثم أُوتي فضيلةَ المجاهَدة بين الروح وملكيتها، وبين الجسد ومادِّيَّته، فإذا ظفرت الروح وخرجت غالبةً كان لها منزلة المجاهدين الفائزين.

وبعد أن استقرَّ في نفسك أن المنعَّم والمعذَّب في الحقيقة هو النفس، وأن لها نوعين من النعيم أو العذاب: نفسي وجسدي، وأن إحساسها بكل واحد منهما يُغاير إحساسها بالآخر، وأنها كُلِّفت تكليفين: جسدي وروحي، ولا يسدُّ أحدهما مَسَدَّ الآخر، حتى لا يُجزئ الإيمان عن الأعمال، ولا الأعمال عن الإيمان، وأن قضية الجزاء الأوفى ألا يُهمَل نصيبُ أحد النوعين ويُستوفَى نصيبُ النوع الآخر، لا نَخالك في شك من أن العقل إذا خُلِّي ونفسه، والفكرة إذا رجعت إلى فطرتها جزمتَ بأنْ لا بُدَّ من استيفاء الجزاءين

الجسـدي والروحي؛ حتى يكون جزاء وفاقًا، وإن كان مرجع كليهما إلى النفس، فهي المعذَّبة في الحقيقة وهي المنعَّمة.

وإذا وصـلتَ إلى هذا الحكم فلَكَ أن تقول: إذًا ليست الذَّوات المادِّية هي التي تلقى الجزاء من نعيم وشقاء، بل هي النفس يلحقها الجزاء مباشرة أو بواسطة الجسد.

فعلى ذلك لو فُرض أن قائلًا قال: إن تلك الذَّرَّات خُلقت من جديد بعد أن أُعدمت الذَّرَّات المادية الأولى، وأن المخلوق الجديد مغايرٌ بشخصه لما سبق عدمُه، فإن هذا لا يضرُّ في أن النفس قد لحِقَها بواسطة بَدَنها الذي خُلق لها نعيمٌ وألمٌ، على أن لك أن تطعن في مغايَرة المخلوق بعد العدم للموجود أولًا الذي لحِقَه العدم والفَناء، فإنه يصـحُّ في نظر العقل أن يُقال: أوجد الشيء، ثم أُعدم، ثم أُعيد وجوده.

ولو فُرض أن قائلًا قال: إن الأجزاء فُرِّقت لا أنها أعدمت، والتفريق ليس إعدامًا، ما ضـــرَّ ذلك في أنه إعادةٌ بعد الفناء؛ ففناء الشيء يكفي فيه تفكُّكُه حتى يزول عنه المعنى المقصود منه، وإن كانت جزئيَّاته حاصلةً بذاتها.

ألا ترى أنك إذا هدمت منزلًا ثم جدَّدته ولو بأنقاضـــه الأولى كنتَ قد أفنيته ثم أعدته؟!

والواقع أنه قد قيل بكلٍّ من هذين القولين:

فقد قال جماعة: معنى الإفناء الإعدامُ بالكلِّيَّة، ومعنى الإعادة الخَلْق من جديد، والمخلوق ثانيًا هو عين المخلوق أوَّلًا الذي لحِقَه العدمُ.

وقال آخرون: بل الفناء هو تفريق الأجزاء حتى يزول عنه اسـمُه الأول ومميِّزاتُه وتضـيع خواصُّــه، ثم إعادتُه هي جَمْع

تلك الأجزاء، والله عليم بها وبتقلُّباتها، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

ومعنى البعث الجسماني قابلٌ لكلا الرأيين؛ فكلٌّ منهما محقِّق له، بل لو قيل: إنه متى كان الغرض إيصالَ الأذى أو النعيم للنفس على جهتين: إما بطريق المباشرة؛ كالنعيم والشقاء الرُّوحيين، أو بطريق الحواسِّ؛ كالنعيم والشقاء الجسديين -لم يُفوِّت ذلك معنى البعث الجسماني.

ونظير ذلك بأن يهدم شخص بيت شخص آخر فينتقم منه بالمثل، ويأبى إلا أن يصنع معه مثل ما صنع، فلا يرضى بضربه ولا إهانته، وإنما يُرضيه أن يهدم بيته كما هدم هو بيته، فهذا لا يحاول إيذاء البيت، ولا يخطر بباله أن البيت يلحقه أذًى، وإنما يريد أن يعاقبه بجنس ما صنع، حتى لو تعدَّدت البيوت التي يسكنها ذلك المعتدي لكان غرضُه يتحقَّق بهدم البيت الذي يشغله حال الانتقام منه، لا الذي كان يشغله يوم

تعدِّيه عليه، وذلك أن غرضــه الانتقام من المعتدي بهدم بيته المنسوب إليه، لا الانتقام من البيت نفسه.

على أن هذا كله إنما يلتجئ إليه لو صــحَّ أن المعدوم إذا وُجد كان مغايرًا للأول، ولا ســبيل لإثبات هذا، أو ثبت أن الأجزاء المادِّية المفرَّقة قد تتوارد على أشــخاص عدَّة من المكلَّفين، تدخل في تركيبهم الأصـلي، فلا يمكن أن تُعاد مع كليهما، ولا اختصاص لأحدهما دون الآخر.

وقد عرفت أن شــيئًا من ذلك غير لازم بما قدَّمنا من أن الأجزاء الأصلية هي التي تُعاد، وهي التي تُلازِم الشخص من أوله إلى آخره.

وقد بقيت كلمة لها مســاس بالموضــوع؛ وهي أن بعض فلاســفة الطبيعيين يزعم أن جزئيات الأبدان كلها في تحليل وتركيب مســتمر، وأن كل جزء يتجدَّد بتوالي الأزمنة؛ فينمو بالغذاء، وينحلُّ عنه البعض بالحركة أو الذُّبول، أو ما شــئتَ، حتى إنه بعد مُضــيِّ عدد من السنين تكون الذَّرَّات التي كانت

داخلة في تركيب الجســم قد زالت كلُّها وتجدَّد مكانها ذرَّات جديدة، وإن هذا لا يمنع اتِّحاد الشــخص قبل تلك الســنين وبعدها.

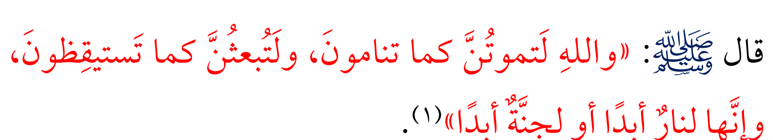
فلو صحَّ هذا القول أيضًا كان شاهدًا لما نقول من أن اتِّحاد اللاحق والسابق لا يتوقَّف على أن الذَّرَّات الداخلة في تركيبه باقيةٌ بشــخصــها لم يُزَد عليها ذرَّة، ولم ينقُص منها ذرَّة، وأنه لشــبيهٌ باتحاد القبيلة أو الجيل، فالعرب هم العرب؛ يعتزُّ آخرُهم بأوَّلهم، وقريش اليوم مثلًا هي قريش، تأخذ أحكامها وإن تبدَّلت أشخاصُها.

[خلاصة البحث في هذه المسألة]

ومن هذا البيان نخلُص بنتيجتين:

الأولى: أن إعادة الأرواح أمرٌ لا غُبارَ عليه ولا نَكيرَ فيه.

والثانية: أن إعادة البَدَن أمرٌ لا يمنع منه مانع عقلي ولا وهميٌّ، وعلى ذلك يكون صَرْف النصوص الشرعية عن ظاهرها ليس إلا لمجرَّد التشهِّي، وليس له من مقتضٍ ولا داعٍ، وأن تلك الثَّرثرة التي تلوكها ألْسنة فئةٍ من الناس -ليخرجوا على حُكم الشريعة بجديد- ثرثرة واهية، حتى لو قِيست بمقياس العقل المحض بدون رجوع إلى نصوص الشرع لبَدَّدها، وجَزَم بأن المقبول في نظره هو البعث الجسماني والروحاني، لتستكمل النَّفس جزاءها وَفْق ما صنعت من أعمال البدن أو الروح؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤]، وقد


قال ﷺ: «واللهِ لَتموتُنَّ كما تنامونَ، ولَتُبعثُنَّ كما تَستيقِظونَ، وإنَّها لنارٌ أبدًا أو لجنَّةٌ أبدًا»[1].

والله الهادي إلى سبيل الرَّشاد.

---

(١) حديث لا أصل له، أورده برهان الدين الحلبي في السيرة الحلبية «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون»، (١ / ٢٧٢).

ثَبَت المصادر والمراجع

١- **«الجامع الكبير» = «سنن الترمذي»**، لمحمد بن عيسى الترمذي (ت. ٢٧٩هـ)، تحقيق: بشَّار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت: ١٩٩٨م.

٢- **«جمهرة اللُّغة»** لمحمد بن الحسن بن دُرَيد الأزدي (ت. ٣٢١ هـ)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي (ت. ١٩٥١م)، دار العلم للملايين، بيروت: ١٩٨٧م.

٣- **«الجواهر الثَّمينة في محاسن المدينة»**، لمحمد كبريت الحسيني المدني (ت. ١٠٧٠هـ)، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٤- **«خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب»** لعبد القادر بن عمر البغدادي (ت. ١٠٩٣هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون (ت. ١٩٨٨م)، مكتبة الخانجي، القاهرة: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٥- **«ديوان أبي فِراس الحَمَداني»**، لأبي فراس الحارث بن سعيد بن حمدان الحمداني (ت. ٣٥٧هـ)، تحقيق: الدكتور سامي الدَّهَّان (ت.



١٩٧١م)، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، بيروت: ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م.

٦-«**ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**»، لعبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون (ت. ٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت: ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٧- «**ديوان بشَّار بن بُرْد**»، تحقيق: محمد الطاهر ابن عاشور (ت. ١٩٧٣م) وآخرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٩٥٠، ١٩٥٧م.

٨- «**زهر الأكم في الأمثال والحكم**»، لنور الدين الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي (ت. ١١٠٢هـ)، تحقيق: الدكتور محمد حجي (ت. ٢٠٠٣م)، والدكتور محمد الأخضر، الشركة الجديدة - دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب: ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٩- **«سقْط الزَّند»،** لأحمد بن عبد الله بن سليمان، المعروف بأبي العلاء المعرِّي (ت. ٤٤٩هـ)، دار بيروت، دار صادر، بيروت: ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

١٠- **«السيرة الحلبية» = «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون»،** لبرهان الدين علي بن إبراهيم ابن أحمد الحلبي (ت. ١٠٤٤هـ)، طبعة دار المعرفة، عام ١٤٠٠هـ.

١١- **«الشِّعر والشُّعراء»** لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت. ٢٧٦هـ)، دار الحديث، القاهرة: ١٤٢٣هـ.

١٢- **«صحيح البخاري المسمَّى بالجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسُننه وأيَّامه»،** لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت. ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة: ١٤٢٢هـ.

١٣- **«صحيح مسلم المسمَّى بالمسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ»،** لمسلم بن الحجَّاج القُشَيري

(ت. ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (ت. ١٩٦٧م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

١٤- **«طبقات الشُّعراء»،** لعبد الله بن محمد ابن المعتزِّ العباسي (ت. ٢٩٦هـ)، تحقيق: عبد الستَّار أحمد فرَّاج (ت. ١٩٨١م)، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

١٥- **«الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحل»،** لعلي بن أحمد بن سعيد، ابن حزم الظاهري (ت. ٤٥٦هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ت.

١٦- **«الكشكول»** لمحمد بن حسين بهاء الدين العاملي (ت. ١٠٣١هـ)، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

١٧- **«اللُّزوميَّات»،** لأحمد بن عبد الله بن سليمان، المعروف بأبي العلاء المعرِّي (ت. ٤٤٩هـ)، تحقيق: أمين عبد العزيز الخانج، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت.

١٨- **«لسان العرب»**، لمحمد بن مكرم بن علي ابن منظور (ت. ٧١١)، دار صادر، بيروت: ١٤١٤هـ.

١٩- **«المستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرف»**، لمحمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي (ت. ٨٥٢ هـ)، عالم الكتب، بيروت: ١٤١٩هـ.

٢٠- **«المسند»**، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت. ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٢١- **«المصباح المنير»**، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت. نحو ٧٧٠هـ)، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت.

٢٢- **«المعجم الوسيط»**، لإبراهيم مصطفى (ت.١٩٦٢م) وآخرين، إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، د.ت.

٢٣- **«معجم مقاييس اللُّغة»**، لأحمد بن فارس بن زكريَّا الرازي (ت. ٣٥٩هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت: ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

فهرس المحتويات

الأزهر سبيل السعادة في الحياتين

لفضيلة الشيخ: إبراهيم الجبالي





هيئة كبار العلماء

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م